من آراء ابن تيمية في النّحو: معنى الحرف في اللغة والاصطلاح

أ. هبال خير الدين
المركز الجامعي – ميلة –

الملخّص: يُبرز هذا المقال بعض الجوانب النّحوية التي تطرّق إليها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه مجموع الفتاوى، والتي تبرز بوضوح تمكّنه من ناصية النّحو العربي، وفي هذه الورقة أستعرض آراء ابن تيمية في معنى الحرف في لغة العرب وفي اصطلاح النّحاة، حيث يستعرض ابن تيمية آراء النحاة في المسألة ويناقش ويرجّح آراء النّحاة ممّا يدلّ على رسوخ قدمه في النحو العربي.

الكلمات المفتاحية: الحرف، الاصطلاح، النّحاة، ابن تيمية، كلام العرب.

- تعريف موجز بابن تيمية:

هو شيخ الإسلام؛ تقيّ الدّين؛ أبو العبّاس؛ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السّلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمّد بن تيميّة الحرّاني، ثمّ الدّمشقيّ[1]. وسُمّي جدّه الأعلى بـ" تيميّة" لأنّه كما قيل حجّ على درب تيماء، فرأى طفلة، فلمّا رجع وجد امرأته قد ولدت له بنتا، فقال: يا تيميّة، يا تيميّة! فلُقّب بـ" تيميّة". ومن هذه الرّواية يظهر أنّ تسمية شيخ الإسلام بـ" ابن تيميّة" نسبة إلى جدّه، وقيل إنّ جدّه محمّدا كانت أمّه تُسمّى "تيميّة"، وكانت واعظة؛ فنُسب إليها وعُرف بها[2]. وُلد سنة 661هـ، في العاشر أو الثّاني عشر من شهر ربيع الأوّل بحرّان[3].

وقد تربّى ابن تيميّة في بيت علم بين أبيه عبد الحليم وجدّه عبد السّلام، ولمّا انتقلوا من حرّان إلى دمشق أخذوا الكتب معهم، على عجلة، وهذا دليل على ارتباط هذه الأسرة بالعلم؛ فأبوه مُحقّق جليل، كثير الفنون، وله يد طولى في الفرائض والحساب والوعظ والإرشاد[4]. وجدّه عبد السّلام – مجد الدّين أبو البركات- كان إماما حجّة بارعا في الفقه، والحديث والتّفسير، وله معرفة تامّة في الأصول[5]، كما أنّ هناك من سائر أفراد أسرته –غير أبيه وجدّه- من برز في ميدان العلم، ومن هؤلاء أخوه شرف الدّين عبد الله الذي برع في الفقه، والفرائض، والعربيّة[6]؛ ولذا كانت نشأة شيخ الإسلام علميّة منذ الصّغر، حيث بدأ تحصيله وطلبه للعلم منذ نعومة أظفاره.

قال عنه ابن عبد الهادي:" وقال عنه الحافظ أبو عبد الله الذّهبيّ: نشأ – يعني الشّيخ تقيّ الدّين- رحمه الله في تصوُّن تامّ، وعفاف وتألّه وتعبّد، واقتصاد في الملبس والمأكل، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره، ويُناظر ويُفحم الكبار، ويأتي بما يتحيّر منه أعيان البلد في العلم؛ فأفتى وله تسع عشرة سنة؛ بل أقلّ، وشرع في الجمع والتّأليف من ذلك الوقت، وأكبّ على الاشتغال، ومات والده – وكان من كبار الحنابلة وأئمّتهم- فدرّس بعده بوظائفه وله إحدى وعشرون سنة، واشتهر أمره، وبعُد صيته في العالم"[7].

وقد تعرّض شيخ الإسلام ابن تيميّة إلى الأذى والمِحن خلال فترة حياته، وما ذلك إلاّ لمحاربته البدع والخرافات التي كان يسلكها متصوّفة زمانه، ومحاربته الفرق المخالفة لطريق السّلف الصّالح، واختياره بعض الآراء والأفكار التي تخالف ما عليه جمهور النّاس في عصره.

ولذلك فقد أوذي وسُجن عدّة مرّات، وآخر مرّة سُجن فيها يوم الاثنين بعد العصر 726/08/06هـ، وذلك في قلعة دمشق، وبقي بها سنتين وثلاثة أشهر، ثمّ توفّي رحمه الله تعالى رحمة واسعة[8].

ذكر العلماء أنّ مؤلّفات شيخ الإسلام ابن تيميّة كثيرة جدّا، ومن الصّعوبة حصرها؛ ولذلك تباينت عباراتهم في تحديدها وحصرها؛ فابن عبد الهادي يقول: "وللشّيخ من المصنّفات والفتاوى والقواعد والأجوبة والرّسائل وغير ذلك من الفوائد ما لا ينضبط، ولا أعلم أحدا من متقدّمي هذه الأمّة ولا متأخّريها جمع مثل ما جمع، ولا صنّف مثل ما صنّف، ولا قريبا من ذلك، مع أنّ أكثر تصانيفه إنّما أملاها من حفظه، وكثير منها صنّفه في الحبس وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب"[9]. ومن أهمّ ما طُبع من مؤلّفاته موسوعة "مجموع الفتاوى".

الحرف في اللغة والاصطلاح:

الحرف لغة: قال الجوهريّ: حرف كل شئ: طرفه وشَفيرُهُ وحَدُّهُ. ومنه حَرْفُ الجبل وهو أعلاه المُحَدَّدُ. والحَرْفُ: واحد حُروفِ التهجّي. وقوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾[10]. قالوا: على وَجهٍ واحد، وهو أن يعبده على السَرَّاء دون الضّراء. والحَرْفُ: الناقةُ الضامرة الصلبة شبهت بحرف الجبل... وكان الأصمعي يقول: الحرف: الناقةُ المهزولة، وقد أَحْرَفْتُ ناقتي؛ إذا هزلتها[11].

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هِيَ الضَّخْمَةُ، شُبِّهَتْ بِحَرْفِ الْجَبَلِ، وَهُوَ جَانِبُهُ. قَالَ أَوْسٌ:

حَرْفٌ أَخُوهَا أَبُوهَا مِنْ مُهَجَّنَةٍ
وَعَمُّهَا خَالُهَا قَوْدَاءُ مِنْشِيرُ

وَقَالَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ:

حَرْفٌ أَخُوهَا أَبُوهَا مِنْ مُهَجَّنَةٍ
وَعَمُّهَا خَالُهَا جَرْدَاءُ شِمْلِيلُ[12]

وجاء في الكتاب: وتقول: لا أحد أفضل منك، إذا جعلته خبرا، وكذلك: لا أحدَ خيرٌ منك: قال الشاعر:

ورَدَّ جازرُهم حَرفاً مُصَرّمةً ولا
كريمَ من الولدان مصبوحُ[13]

والبيت ذكره أبو سعيد السيرافي في شرح أبيات سيبويه، ونسبه إلى حاتم بن عبد الله الطّائي[14].

الحرف اصطلاحا: قال ابن مالك:

سِوَاهُمَا الْحَرْفُ كَـ: "هَلْ" وَ"فِي" وَ"لَمْ"
فِعْلٌ مُضَارِعٌ يَلِي "لَمْ" كَـ: "يَشُمْ"[15].

يشير إلى أن الحرف يمتاز عن الاسم والفعل بخلوه عن علامات الأسماء وعلامات الأفعال، ثم مثّل بـ: "هل" و"في" و"لم" منبّها على أن الحرف ينقسم إلى قسمين: مختصّ وغير مختصّ؛ فأشار بـ: "هل" إلى غير المختصّ، وهو الذي يدخل على الأسماء والأفعال؛ نحو: هل زيد قائم؟ وهل قام زيد؟ وأشار بـ: "في" و"لم" إلى المختصّ؛ وهو قسمان: مختصّ بالأسماء كـ: "في" نحو: زيد في الدار، ومختصّ بالأفعال كـ: "لم" نحو: لم يقم زيد[16].

قال الزمخشريّ: "الحرف ما دلّ على معنى في غيره. ومن لم ينفكّ من اسم أو فعل يصحبه إلاّ في مواضع مخصوصة"[17].

وابن تيمية تطرّق لمسألة الحرف في معرض حديثه عن "إنكار الإمام أحمد على من قال بخلق الحروف" ونبّه على أنّ الحرف يطلق ويراد به الاسم، وأنّ تسميتها بالحرف إنّما هو من باب تسمية الشّيء باسم مسمّاه، يقول: "فَأَمَّا حَرْفٌ مُجَرَّدٌ؛ فَلَا يُوجَدُ لَا فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي غَيْرِهِ، وَلَا يُنْطَقُ بِالْحَرْفِ إلَّا فِي ضِمْنِ مَا يَأْتَلِفُ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ وَحُرُوفِ الْمَعَانِي؛ وَأَمَّا الْحُرُوفُ الَّتِي يُنْطَقُ بِهَا مُفْرَدَةً مِثْلُ: "أَلِف لَام مِيم"؛ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَهَذِهِ فِي الْحَقِيقَةِ أَسْمَاءُ الْحُرُوفِ؛ وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ حُرُوفًا بِاسْمِ مُسَمَّاهَا؛ كَمَا يُسَمَّى "ضَرَبَ": فِعْلٌ مَاضٍ بِاعْتِبَارِ مُسَمَّاهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ الْخَلِيلُ أَصْحَابَهُ كَيْفَ تَنْطِقُونَ بالزاء مِنْ زَيْد؟ قَالُوا: نَقُولُ "زاي"، قَالَ: جِئْتُمْ بِالِاسْمِ؛ وَإِنَّمَا يُقَالُ: زه"[18].

كما تطرّق لمعنى الحرف وأقسامه عند النّحاة، وفي استعمال العرب ونبّه على أنّه مأخوذ من معناه في استعمالهم. ممّا يدلّ على أنّ ابن تيميّة عالما بالنّحو، عارفا بسرّ صناعته ملمّا بأصوله وفروعه وقضاياه، حيث جاء نصّه حافلا بالمعارف النّحوية في إيجاز غير مخلّ[19]؛ ويمكن حصر ما جاء في كلام ابن تيمية في النقاط التالية:

1- الحرف في اصطلاح النحاة يطلق ويراد به حروف المعاني التي هي قسم من أقسام الكلمة؛
2- الحروف منها ما هو مختصّ ومنها ما هو غير مختص؛
3- شرط عمل الحروف المختصّة ألاّ تكون جزءًا من الكلمة أو كالجزء منها، وهي العلّة في انتفاء العمل عن "أل" و"السّين وسوف"؛
4- علّة إعمال "ما" الحجازية مشابهتها لـ"ليس"، مع أنّها حرف غير مختصّ؛
5- السّماع حجّة على القياس في مسألة "ما" الحجازية؛ إذ "بلغتهم جاء القرآن"؛
6- تقسيم الحروف بحسب معانيها إلى حروف استفهام، ونفي، وتحضيض...؛
7- تقسيم الحروف باعتبار بنيتها إلى مفرد، وثنائيّ، وثلاثيّ، ورباعيّ، وخماسيّ؛

8- المعنى النّحوي للحرف (المصطلح) مأخوذ من المعنى اللّغويّ بالتخصيص،
9- تقسيم الحروف بحسب مخارجها إلى حلقية، وشفهيّة، ومطبقة، ومصمتة؛
10- شمول معنى الحرف لمعنى الكلمة المفردة، وحروف الهجاء، وخطوط المصحف المكتوبة.

إنّ المتأمّل كلامَ ابن تيمية، يلحظ صحّة ما ذهب إليه من إطلاق العرب مسمّى الحرف على غير ما وضعه النّحاة له.

فقد يُطلق ويُراد به حرف الهجاء، ومن ذلك أنّ أبا الأسود الدّؤليّ لمّا أراد إعراب القرآن اختار رجلا من عبد القيس ليساعده على هذه المهمة، وقال له: "خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد؛ فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف؛ وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله"[20].

وقد ورد في مواضع كثيرة بهذا المعنى في لسان العرب؛ ومن ذلك قول ابن منظور: "وَالْعَيْنَانِ مَتَى اجْتَمَعَتَا فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ مَفْصُولًا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَكُونُ الْحَرْفُ الْفَاصِلُ بَيْنَهُمَا إِلا زَائِدًا، نَحْوَ عَثَوْثَلٍ وعَقَنْقَلٍ وسُلالِمٍ وحَفَيْفَدٍ"[21].

وقد يطلق ويُراد به الكلمة؛ ومن ذلك أنّ أبا الأسود لقي ابن صديق له فسأله عن أبيه ثم قال له: "... فما فعلت امرأته التي كانت تزاره وتماره وتشاره وتضاره؟ قال: طلّقها وتزوج غيرها؛ فحظيت عنده ورضيت وبظيت، قال أبو الأسود: فما معنى بظيت؟ قال حرف من اللغة لم تدرِ من أي بيض خرج؛ ولا من أي عــش درج ..."[22].

كما ورد في مواضع كثيرة في لسان العرب؛ ومن ذلك قول ابن منظور: "وَهَذَا الْحَرْفُ فِي التَّهْذِيبِ فِي تَرْجَمَةِ "عدب" بِالدَّالِ الْمُهْمَلَةِ، وَقَالَ: هُوَ العُدَبِيُّ، وضبطه كذلك"[23].

وقوله: "لدح: اللَّدْحُ: الضَّرْبُ بِالْيَدِ. لَدَحَه يَلْدَحُه لَدْحاً: ضَرَبَهُ بِيَدِهِ؛ قَالَ الأَزهري: وَالْمَعْرُوفُ اللَّطْحُ وكأَن الطَّاءَ وَالدَّالَ تَعَاقَبَا فِي هَذَا الْحَرْفِ"[24].

وقال ابن قتيبة في "باب الحروف التي تتقارب ألفاظها وتختلف معانيها: " "الإِرْبَة" الحاجةُ، و "الأُرْبَة" العُقْدَةُ. و"الحَدَأَة" الفأسُ ذات الرأسين، وجمعها حَدَأٌ والحِدَأَةُ الطائر وجمعها حِدَأٌ"[25].

وقد يطلق ويُراد به القراءة أو اللغة (اللهجة)؛ ومن ذلك ما رُوي في كتب الصّحاح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من أن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف؛ بطرق مختلفة وبنصوص مختلفة؛ منها ما رُوي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس حدثه أن رسول -صلى الله عليه وسلم- قال: " اقرأني جبريل -عليه السلام- على حرف فراجعته، فلم أزل استزيد فيزيدني حتى انتهى

إلى سبعة أحرف"[26]. كما نُقلت روايات تشير كلّها إلى نزول القرآن الكريم بسبعة أحرف؛ منها ما نقل عن أبيّ بن كعب؛ ومنها ما نُقل عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وملخّصهما أنّ كلّا منهما لقي رجلا في المسجد يقرأ بقراءة أخرى غير قراءته فيذهب إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيخبره أنّ القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف[27].

وقد أُختُلف في مفهوم الحرف في متن هذه الأحاديث وما شابهها، ففريق قال: إنّ الأحرف هنا المقصود بها القراءات السبعة[28]، وهو ما نفاه ابن تيمية بقوله: "لا نزاع بين العلماء المعتبرين أنّ "الأحرف السبعة" التي ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنّ القرآن أُنزل عليها ليست هي قراءات القراء السبعة المشهورة"[29]، وفريق قال: إن المقصود هو اللغات، يقول الأزهريّ: "فَالَّذِي أذْهَبُ إِلَيْهِ فِي تفسيرِ قولِهِ: "نُزِّلَ القرآنُ على سَبْعَةِ أحرف" مَا ذهب إِلَيْهِ أَبُو عبَيْدٍ واتَّبعه على ذَلِك أَبُو العَبَّاسِ أَحْمد بن يحيى. فَأَما قَول أبي عبيدٍ؛ فَإِن عبدَ الله بنَ مُحَمَّد ابْن هاجَك أَخْبرني عَن ابْن جَبَلَة عَن أبي عبيدٍ أَنه قَالَ فِي قَوْله "على سَبْعَة أحرف" يَعْنِي سبع لُغَاتٍ من لُغَات العَرَبِ. قَال: وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَن يكونَ فِي الْحَرْف الواحدِ سبعَةُ أَوْجُهٍ، هَذَا لَمْ نَسمعْ بِهِ. قَالَ: وَلَكِن نقُول: هَذِه اللغاتُ السبعُ متفرقَةٌ فِي الْقُرْآن فبعضه بِلُغَةِ قُرَيْش، وبعضُه بلغَة هوازِنَ وبعضُه بلغَة هُذَيْلٍ، وبعضُه بلغَة أهلِ اليَمَن وَكَذَلِكَ سائِرُ اللُّغَات ومعانيها فِي هَذَا كُلّه وَاحِدَةٌ"[30].

لقد أشار ابن تيميّة إلى أنّ مسّمى الحرف في اصطلاح النّحاة، أُخذ عن سيبويه الذي عبّر عنه بقوله: "وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل"، ونوّه بأنّه كان دقيقا في عباراته، لم يأت بشيء اعتباطا، فكمل الكتاب منهجا ومصطلحا وتعبيرا ومادة فجاء العلماء بعده، فقصروا في هذه العبارة وبدلوا وغيروا، وفهموها فهما خطأ.

إنّ سيبويه حينما قال: "وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل" يكون قصد بالحرف الأداة التي نعرفها حتى يومنا هذا، وهي أنواع الحروف العاملة؛ ولكنه قصد الأداة حينما ذكر الجملة بكاملها؛ أي: إنّه جعل جملة "حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل" بمنزلة الكلمة الواحدة؛ للدقة التي يتوخاها؛ وقصد بالحرف جنس الكلمة العامّ، ثم استثنى من هذا الجنس العامّ الاسم والفعل؛ بقوله "ليس باسم ولا فعل"؛ فقد يذكر هذا المصطلح؛ أي: "الحرف" في كتابه ويريد به اسما لا أداة، وقد يريد به فعلا في مرة أخرى، وقد يريد به جملة أو أداة أو حرف هجاء أو اسم فعل في بعض الأحيان.

إنّ الجملة التي لحقت كلمة "حرف" في عبارة سيبويه ما جاء بها إلا ليؤكّد أنّ هناك نوعا ثالثا من الكلم هو ليس اسما ولا فعلا؛ بدليل أنه عندما فصّل الكلام بعد ذلك قال: "... وأما "ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعلٍ"؛ فنحو: "ثُمَّ، وسَوْف، وواو القسم، ولام الإضافة"، ونحوها"[31]، ويقول بعد ذلك:

"...وللحروف التي ليست بأسماء ولا أفعال، ولم تجيء إلا لمعنى"[32].

ويقول أيضا: "والفتح في "الحروف التي ليست إلا لمعنى وليست بأسماء ولا أفعال" قولهم: "سوف و ثمّ"..."[33]. فهو في النص الأول لا يذكر اسم الحرف وفي الثاني والثالث يأتي بالجملة؛ وكأنه يأتي بكلمة واحدة، لا يمكنه اختصارها لئلا تفهم خطأ.

أمّا مسمّى "الحرف" مجرّدا؛ فيطلقه ويريد به الكلمة المفردة على وجه العموم من دون تحديد هل كانت هذه الكلمة اسما أو فعلا أو أداة أو اسم فعل، وقد تأتي بمعنى الجملة في بعض الأحيان، وبهذا المعنى أطلقها نحاة عصره؛ إذ كان معروفا في اللغة أنّ الحرف إنّما يقصد به حرف الهجاء والكلمة والجملة، وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

1- قال سيبويه: "ومثل قولهم: "من كان أخاك"، قول العرب: "ما جاءت حاجتك" كأنه قال: ما صارت حاجتك، ولكنه أدخل التأنيث على "ما"، حيث كانت الحاجة، كما قال بعض العرب: "من كانت أمك" حيث أوقع "من" على مؤنّث، وإنما صيّر "جاء" بمنزلة "كان" في هذا الحرف وحده؛ لأنه بمنزلة المثل"[34]. وقد أراد بالحرف هنا الجملة.
2- وقال: "فأما سميت وكنيت ...فهذه الحروف كان أصلها في الاستعمال..."[35]. وقد أراد بالحرف هنا الفعل وهو الفعل "سمّى" أو الفعل "كنّى".
3- وقال: "...فمن تلك الحروف: حسبك وكفيك وشرعك وأشباهها"[36]؛ إذ أراد بالحرف هنا اسم الفعل.

فسيبويه في كتابه ما ذكر لفظة "الحرف" إلا وأراد بها جنسا عاما؛ وإن كان قد ذكر في كتابه مصطلح "حرف الجر" أو "حرف الإضافة" أو "حرف الإعراب" أو "حرف المد" أو "حرف المد واللين" وما إلى ذلك؛ فإنّه عنى بالحرف جنسا عاما، ثم خصّص هذا الجنس بإضافته إلى اسم آخر، فهو عند قوله "حرف جر" إنّما أراد بها الكلمة التي تجرّ الاسم؛ بدليل أنه لم يستقر على هذا المصطلح، فمرّة يقول "حرف جر" ومرة أخرى يقول "حرف إضافة".

كما ورد مسمّى "الحرف" عند الأخفش بنفس المعنى الذي أورده سيبويه، وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

1- قال الأخفش: "إلّا أنّه يجوز في "هيهات" أن تكون جماعة، فتكون التاء التي فيها تاء الجميع التي للتأنيث، ولا يجوز ذلك في "اللاّتِ"، لأنّ "اللاّت" و "كيت" لا يكون مثلهما جماعة، لأنّ التاء لا تزاد في الجماعة إلاّ مع الألف؛ فإن جعلت الألف والتاء زائدتين بقي الاسم على حرف واحد"[37]؛
2- وقال في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُم﴾[38] جزم، ورفع على ما فسرت. وقد يجوز في هذا، وفي الحرف الذي قبله النصب[39].

فالأخفش في هذه المواضع لم يقصد بالحرف المعنى النحوي الذي نفهمه نحن في

هذا العصر؛ وإنما قصد به اسما أو فعلا أو جملة أو غير ذلك، فهو في المثال الأول قصد به حرف الهجاء، وفي الثانية أراد به الفعل، وفي الثالثة أراد بالحرف الآية أو الموضع من الآية.

وأمّا الفرّاء؛ وهو إمام المدرسة الكوفية في عصره بعد الكسّائيّ، فقد ورد "الحرف" عنده بالمعنى الذي قصده سيبويه، ويظهر ذلك في مواضع كثيرة في كتابه "معاني القرآن" وهذه بعض الأمثلة:

1- قال الفرّاء: "وقوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[40] رفعه حمزة والكسّائي وجعلا الحق هو الله تبارك وتعالى؛ لأنّها في حرف عبد الله "ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَالَ الله" ..."[41]. فهو هنا يذكر الحرف ويريد به القراءة.
2- وقال: "ولو قال: "بمن مررت؟" لم تقل: زيد؛ لأنّ الخافض مع ما خفض بمنزلة الحرف الواحد"[42]. وأراد بالحرف هنا الكلمة كونها جنسا عاما.
3- وقال: "ويجوز في "ليس" خاصة أن تقول: "ليس أحد إلا وهو هكذا"؛ لأنّ الكلام قد يتوهم تمامه بـ"ليس" وبحرف نكرة ..."[43]. وإنما أراد به هنا الاسم.

غير أنّنا إذا نظرنا إلى تقسيم الكلام عند الكوفيين؛ ومن أئمتهم الفرّاء؛ نجد أنّهم كانوا يقسّمون الكلام إلى: اسم وفعل وأداة؛ أي: إنّهم لم يعرفوا الحرف قسما من أقسام الكلام؛ بل عرفوه جنسا عاما للكلمة، وهو ما جرى عليه استعمالهم له في كتبهم.

وأمّا النّحاة الذين أتوا بعد سيبويه؛ فبدؤوا يفهمون هذا المصطلح وهذه العبارة على غير ما وضعت له، فراحوا يقصرون من جملة سيبويه هذه؛ فجاء المبرّد وقال عن الحرف: "...وحرف جاء لمعنى"[44].

وقال أيضا: "فأما ما كان من هذه الحروف التي جاءت لمعانٍ؛ فهي منفصلة بأنفسها ممّا بعدها وقبلها"[45].

فالمبرّد هنا وصف الحروف بأنّها "جاءت لمعان"، كما قال في تقسيم الكلام؛ حيث وصف الحرف بأنه "جاء لمعنى" وكأنه يجعل عبارة "حرف جاء لمعنى" ككلمة واحدة لا يمكن الاستغناء عن بعضها لئلا تفهم خطأ، وإن كان مسمّى الحرف عنده لم يخرج عن العرف اللّغوي. ومن ذلك قوله: "فأمّا قراءة من قرأ "معائش" فهمز فإنّه غلط؛ وإنما هذه القراءة منسوبة إلى نافع بن أبي نعيم، ولم يكن له علم بالعربية، وله في القرآن حروف قد وقف عليها"[46]. فهنا يذكر الحرف ويريد به القراءة في القرآن.

وأمّا ثعلب من أئمّة الكوفة، وهو معاصر للمبرّد؛ فقد استعمل "الحرف" بالمعنى اللّغوي، إذ يسمّونه في اصطلاحهم "الأداة"؛ ومن ذلك قوله: "...ابن عرس، وابن نعش وابن آوى، وابن قترة، وابن تمرة، وابن أوبر. قال: هذه الأحرف واحدهنّ مذكر وجماعتهنّ مؤنثة"[47]، فهو يذكر الأحرف ويعنى بها الأسماء التي ذكرها.

ولعلّ أوّل من استعمل مصطلح "الحرف" بلفظه ومعناه النّحوي المعروف عندنا هو ابن السّرّاج، حيث يقول في تقسيمه للكلام: "يأتلف من ثلاثة أشياء؛ اسم وفعل وحرف"[48] فكان أول من أسقط الجملة التي وضعها سيبويه لتبيّن قسم الحرف، مع أنّه استعمله

بمعناه اللّغويّ، ممّا أدّى إلى اضطراب فهم المقصود من كلامه؛ إذ يستعمله تارة بالمفهوم النّحويّ، وتارة أخرى بالمفهوم اللّغوي، يقول: "علم الرجل زيد وضربت اليد يده... وقد حكي عن الكسّائي أنه يقول في هذا: قضو الرجل، ودعو الرجل، وهو عندي قياس وذكروا أنّه شذّ مع هذا الباب ثلاثة أحرف سمعت وهي: سمع وعلم وجهل"[49]. فمن الواضح أن ابن السراج هنا ذكر الحرف وأراد الفعل.

كما استعمل الزّجّاج "الحرف" بمعناه اللّغويّ، حيث يقول: "وممّا جاء فيه الإشمام عن أبي عمرو في سورة البقرة ينقسم إلى قسمين: مضموم ومرفوع: فالحروف المضمومة ثمانية: قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[50]، و﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيِثُ شِئْتُمَا•﴾[51]، و﴿حَيْثُ شِئْتُم رَغَدًا﴾[52]، و﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون﴾[53]، و﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُون﴾[54]"[55]. وقد ذكر الزجاج في هذا النص الحرف، ثم ذكر آيات من القرآن الكريم أي: إنّه ذكر الحرف وأراد الموضع أو الآية.

وكذلك استعمله ابن جنّي، حيث أورد مسمّى "الحرف" في مواضع عديدة من كتابه الخصائص بالمعنى الذي استعمله سيبويه، ومن النصوص التي ورد فيها المصطلح بهذا المعنى:

1- قوله: "...ومنه أن عدلوا فعلا عن فاعل في أحرف محفوظة، وهي: ثُعل وزُحل وغُدر وعُمر وزُفر وجُشم وقُثم ..."[56]. وهو هنا يقصد بالحرف الكلمة جنسا عاما.
2- وقوله: "...ولم يحفل بالحرف الشاذ من هذا، وهو قولهم "يئس" مثل "يعس" لقلته"[57]. وهنا أيضا يريد بالحرف الكلمة.
3- وقوله: "...ألا ترى أنّ الواو لا توجد منفردة في ذوات الأربعة؛ إلا في ذلك الحرف وحده وهو: وَرَنْتل"[58]. والمقصود بالحرف هنا هو الكلمة.

لقد قصد ابن جنّي بمسمّى "الحرف" الكلمة جنسا عامّا، وهو من استعمالاتها في لغة العرب، مع أنّه يقسّم الكلام إلى اسم وفعل وحرف[59]؛ فاكتفى بكلمة "حرف" ولم يتبعها بشيء. وهنا بدأ المصطلح بمفهومه النحويّ بالثبات بعد أن كان ابن السرّاج قد قسّم الكلام أيضا إلى اسم وفعل وحرف.

وخلاصة القول: إنّ مصطلح "الحرف" بوصفه قسما من أقسام الكلام الثلاثة، قد تطوّر عبر مراحل إلى أن بدأ بالثبات في القرن الرابع الهجري؛ فسيبويه قسّم الكلام إلى "اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل"، ثمّ جاء بعده المبرّد؛ فقسّم الكلام إلى "اسم وفعل وحرف جاء لمعنى"، ثمّ جاء ابن السراج؛ فقسّمه إلى "اسم وفعل وحرف" وكذا فعل أبو عليّ الفارسي[60]، وابن جني، والزمخشري، ومثله ابن مالك، وابن هشام، وابن عقيل؛ يقول: "والكلم: اسم جنس واحده كلمة؛ وهي إما اسم؛ وإما فعل وإما حرف؛ لأنها إن دلّت على معنى في نفسها غير مقترنة بزمان فهي الاسم، وإن اقترنت بزمان فهي الفعل وإن لم تدلّ على معنى في نفسها بل في غيرها فهي الحرف"[61].

- الهوامش:

ثمّ استقرّ المصطلح عند النّحاة، وبه جرى استعمالهم له، حتى طغى على الاستعمال اللغوي، وصار يقصد به ما هو متعارف عليه عندهم، وقد تنبّه شيخ الإسلام إلى هذا الأمر، ووضّحه، من خلال تبيينه لمعنى "الحرف" في اللغة والاصطلاح، وهنا يبني قاعدة جليلة مفادها أنّ اصطلاحات العلوم الحديثة لا ينبغي أن تطغى بحال من الأحوال على الوضع اللغويّ الصّحيح، حتى لا تلتبس المفاهيم وتختلط، هذا الالتباس هو الذي نجده عند أبي البقاء العُكبري؛ إذ يقول عن الأفعال الناقصة: "لم يذهب أحد إلى أنها حروف، ومن عبر عنها بذلك فهو متجوّز كالزجاجي"؛ إذ إنّ بعض النحاة قبل العكبري سمّى هذه الأفعال حروفا، فما كان من أبي البقاء إلاّ أن جعلها من باب التجوّز، فالتبس عليه المعنى اللغوي للحرف كما تواضعت عليه العرب؛ ومعناه الاصطلاحي كما تواضع عليه النّحاة.

وهذا الأمر انتبه إليه المحدثون، فصاروا عند حدّهم لحدود أيّ علم يذكرون معناه اللغوي كما تواضعت عليه العرب، ثمّ يردفون بمعناه الاصطلاحي، كما يفهمه أهل ذلك العلم.

- الهوامش:

[1]– محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي، العقود الدريّة في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، د ط. مكتبة الإيمان، ص03.

[2]- المرجع نفسه، ص04.

[3]- أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، ط1.بيروت: د ت، دار المعرفة، ج2، ص287.

[4]- عبد الحيّ بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، د ط. بيروت: د ت، دار إحياء التراث العربي، ج5، ص376.

[5]- محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تح: بشار معروف، ط1. بيروت: 1404هـ، مؤسّسة الرّسالة،ج2، رقم الترجمة 622، ص653-655.

[6]- ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص76-77.

[7]- المرجع السابق، ص05.

[8]- المرجع السابق، ص218.

[9]- المرجع السابق، ص20-21.

[10]- الحج، الآية 11.

[11]- أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، ط04. بيروت: 1987م، دار العلم للملايين، ج04، ص1342.

[12]- ينظر: أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دط. 1979م، دار الفكر، ج02 ص42.

[13]- سيبويه، الكتاب، ج02، ص299.

[14]- ينظر: أبو محمد يوسف بن أبي سعيد السيرافي، شرح أبيات سيبويه، تح: محمد علي الريح هاشم، دط. القاهرة: 1974م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج02، ص06.

[15]- ابن مالك، ألفية ابن مالك، ص07.

[16]- ابن عقيل، شرح ابن عقيل، ج01، ص24.

[17]- الزمخشريّ، المفصّل، ص379.

[18]- ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، مج06، ج12، ص240.

[19]- يُنظر: السابق، مج06، ج12، ص63، 64.

[20]- أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن الأنباري، نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء تح: إبراهيم السامرائي، ط03. الزرقاء –الأردن: 1985م، مكتبة المنار، ص20.

[21]- ابن منظور، لسان العرب، ج02، ص519.

[22]- السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي، دط. دت، 1966م مصطفى البابي الحلبي، ص15.

[23]- ابن منظور، لسان العرب، ج01، ص586.

[24]- المرجع السابق، ج02، ص578.

[25]- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوري، أدب الكاتب، تح: محمد الدالي، دط. دت، مؤسسة الرسالة ص322. وينظر: ص307.

[26]- أبو الحسن مسلم بن الحجّاج النيسابوري، صحيح مسلم "المسند الصحيح المختصر"، تح: محمد فؤاد عبد الباقي دط. بيروت: دت، دار إحياء التراث العربي، حديث رقم: 818.

[27]- يُنظر: البخاري، صحيح البخاري، ج03، ص185. حديث رقم: 4705.

[28]- ينظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج01، ص11-21.

[29]- ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، مج07، ج13، ص210.

[30]- الأزهريّ، تهذيب اللّغة، ج05، ص11.

[31]- سيبويه، الكتاب، ج01، ص12.

[32]- المرجع السابق، ج01، ص15.

[33]- المرجع السابق، ج01، ص17.

[34]- المرجع السابق، ج01، ص50.

[35]- يُنظر: السابق، ج01، ص38،39.

[36]- المرجع السابق، ج03، ص100.

[37]- أبو الحسن الأخفش الأوسط، معاني القرآن، تح: هدى محمود قراعة، ط01. القاهرة: 1990م، مكتبة الخانجي ج01، ص12.

[38]- البقرة، الآية 271.

[39]- المرجع السابق، ج01، ص63.

[40]- مريم، الآية 34.

[41]- أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء، معاني القرآن، تح: محمد علي النجار وآخرون، ط01. مصر: دت، دار المصرية للتأليف والترجمة، ج01، ص155، ج02، ص20.

[42]- المرجع السابق، ج01، ص196 و ص321.

[43]- المرجع السابق، ج02، ص83.

[44]- أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عظيمة دط01. بيروت: دت، عالم الكتب ج01، ص03.

[45]- المرجع السابق، ج01، ص39.

[46]- المرجع السابق، ج01، ص64،65.

[47]- أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، مجالس ثعلب، كتاب إلكتروني exe، ج01، ص301، 302، و ص590.

[48]- أبو بكر محمد بن السري ابن السرّاج، الأصول في النّحو، تح: عبد الحسين الفتلي دط. بيروت: دت، مؤسّسة الرّسالة، ج01، ص38.

[49]- المرجع السابق، ج01، ص136.

[50]- البقرة، الآية 30.

[51]- البقرة، الآية 35.

[52]- البقرة، الآية 58.

[53]- البقرة، الآية 133.

[54]- البقرة، الآية 138.

[55]- أبو إسحاق إبراهيم بن السرّي الزجاج، الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجلل عبده شلبي، ط01. بيروت: 1988م، عالم الكتب، ج01، ص220.

[56]- ابن جني، الخصائص، ج01، ص25.

[57]- المرجع السابق، ج01، ص11.

[58]- المرجع السابق ، ج01، ص140.

[59]- ينظر: السابق، ج01، ص41.

[60]- ينظر: عبد القاهر الجرجاني، المقتصد في شرح التكملة، تح: أحمد بن عبد الله بن إبراهيم ط01. السعودية: 2007م، جامعة الإمام محمد بن سعود، ج01، ص68.

[61]- ابن عقيل، شرح ابن عقيل، ج01، ص15.